380



محاضرة لأمير المؤمنين جلالة الملك
في ختام الدروس الحديثية لشهر رمضان المعظم
شرح به جلالته قول جده المصطفى عليه السلام :
(كم من رجل لو أقسم على الله لأبره)

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرسول الصادق الأمين.

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث، فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

أيها السادة :

أيها العلماء الأفاضل :

جرت العادة في نهاية دروس رمضان أن أتطفل على مائدتكم وما هو من اختصاصاتكم، فنحن لسنا من الفقهاء ولا من المحدثين ولا من المفسرين المتخصصين، فسلفا نرجو منكم التسامح، كما أننا نطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعيننا على تفسير هذا الحديث وشرحه وتطبيقه تفسيراً وشرحاً وتطبيقاً يزيدنا إيماناً ويقينا وتعلقا بملة أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

التذكير من مهام الراعي :

وقد تذكرت بهذه المناسبة مثلا مغربياً عامياً أصوغه في قالب فصيح وهو يقول : (لاتتخل عن عادات، يسبب لك تركها معاداة)، إذن فما علينا إلا أن نحافظ على هذه العادة، ونسهم معكم بنصيبنا لا كمفسر ولا كمحدث ولا كعالم ولا كأستاذ، ولكن كراعي عليه مسؤوليات الراعي، ومسؤوليات الراعي — كما تعلمون — هي مسؤوليات جسام ومتعددة في أنواعها وأزمنتها وأمكنتها، ولما كانت هذه الرعاية تصادف شهر رمضان الذي هو شهر الصيام والامساك عن كل معصية، وشهر الانابة إلى الله تعالى صارت رعايتنا — اعتباراً للزمان وللمكان — في شكل تقديم بعض النظريات من شأنها أن تعزز جانب الدين في قلوبنا وتثبت عليه أقدامنا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(كم من رجل لو أقسم على الله لأبره) :

انني وجدت هذا الحديث لطيفاً في مبناه، عظيماً في معناه، وجدته باباً مفتوحاً وأفقاً فسيحاً لا حد له ولا نهاية أمام كل عبد مسلم، وقبل أن أشرح هذا الحديث وأطبقه على ديننا وعلى دنيانا وعلى المسلمين أجمعين،

أود بطريقة موضوعية ــ إن لم أقل بطريقة حديثة ــ ان أظهر فضل هذه الديانة، ديانة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، على سائر الديانات الأخرى، حتى يمكننا إذ ذاك أن نقيس أعمالنا ومعاملاتنا بالديانة الاسلامية، وحتى يمكننا أن نبشر أنفسنا ويبشر بعضنا بعضاً انه من الممكن أن يكون منا في كل زمن وفي كل وطن ذلك الرجل الذي إذا أقسم على الله أبره.

الاسلام مسك ختام الرسالات السماوية :

إنني أطلعت في صحيح الامام مسلم على حديث لا أحفظ نصه يشبه فيه النبي صلى الله عليه وسلم الديانات والرسل، يقول فيه عليه السلام ما معناه : مثل الديانات والرسل كمثل بيت أقيم و لم تبق فيه إلا لبنة، وانا لبنة ذلك البيت : اللبنة العليا، بيت القصيد، واسطة العقد، الخاتمة، مسك ختام الرسالات والنبوات، فإذا نحن طبقنا هذا الحديث على تطور الانسانية وعلى تطور الديانات وجدنا أن الديانات السماوية وبالأخص التي نعرف عنها والتي مازلنا نقرأ عنها رسالات ثلاث : رسالة موسى عليه السلام وما تبعها، ورسالة عيسى عليه السلام وما تبعها، ورسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

الأديان من حيث الزمان والمدلول والرسول :

وإذا أردنا أن ندخل في هذا الشرح بالتمحيص وجب علينا أن ننظر إلى هذه الديانات من وجوه ثلاثة :

1) زمانها.

2)مدلولها.

3)الرجل الذي دعا إليها.

أما عن الزمان فقد قيل ــ وأنا مقتنع بذلك ــ في هذا المجلس، وفي الكتب وفي مجالس أخرى، ان لكل مرسل بديانة معجزات تناسب زمانه، فمعجزة موسى كانت من جنس السحر لكثرة السحرة في عهده، ومعجزة عيسى عليه السلام كانت من جنس الطب لانتشار الطب في زمانه، فقد أبرأ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله، ومعجزة محمد صلى الله عليه وسلم هي القرآن المعجز، فقد خلق صلى الله عليه وسلم أمياً فجاء بهذا القرآن الذي ليس له مثيل، والذي تحدى فصحاء العرب وبلغاءهم ــ وما أكثرهم في زمانه ــ أن ياتوا بسورة من مثله فعجزوا.

أنا أقدر هذه الأقوال كلها، إلا أنني أعتقد من المستحسن أن أزيد بعض التفسيرات في هذا الباب :

كلنا يعلم أن موسى ازداد في مصر أيام الفراعنة، وان الفراعنة كانوا على علم عميق، وبالأخص الرهبان الذين كانوا يحيطون بهم ويفتونهم في أمرهم، والذين كانوا يسيرون حقيقة سياسة الدولة، لم يكونوا على علم عميق بالسحر فقط، بل كانوا بالاضافة إلى ذلك على علم بجميع الرياضيات التي كانت معروفة إذ ذاك، فلم تكن إذن العصى التي أوحى الله إلى موسى أن يلقيها إلا معجزة مناسبة.

كان موسى يعرف خواص الزئبق، وأنه إذا ألقى في الحرارة أو وضع تحت الشمس أخذ يطول ويطول فيتحرك بالعصى، فكانت معجزة موسى عليه السلام على حد فهم أهل زمانه.

ولا ننس أن البشرية كانت إذ ذاك في جهالة جهلاء، فكانت تأخذها الخشية وتفر إذا أمطرت عليها

السماء بالضفادع، لأنها لم تكن إذ ذاك تعرف أن هذا شيء ممكن وعادي، لأن الضفادع تبيض في الأودية والأنهار، وحينما تمتص الشمس بخار الماء تأخذ معه ذلك البيض الذي يكون صغيراً جداً فينمو في السحاب، وإذا به ينزل يوماً ما في صورة ضفادع، شيء وقع، أظهره الله في ذلك الوقت على يد موسى يمكنه بذلك أن ينقذ الفكر البشري مما كان مخيماً عليه من الجهل وعدم معرفة هذه الأسرار.

ومما هو معروف في بلاد الشرق وأرض الكنانة ـــ أن السماء تمطر بعض المرات ماء أحمر، لأن الرياح لما تأتي تأخذ الماء والبخار ومعه شيء من الطين الأحمر، فيتكون الماء عند التقاء السحاب فينزل الماء أحمر كأنه دم، وكان من معجزة موسى عليه السلام انه طلب من الله أن تمطر السماء ماء أحمر حتى يزدجر به فرعون، وقوم فرعون، لا السحرة، ونحن نعلم اليوم علم اليقين أن سيدنا موسى عليه السلام كان من تلاميذ الرهبان قبل أن يأتيه الوحي، فقد قرأ عليهم كثيراً، وأخذ عنهم كثيراً، وبذلك تمكن من معرفة ما ينفع به شعب مصر ومن يحدق به من الشعوب الأخرى من الأشياء التي تستلفت الأنظار إلى أهمية بعض الأحداث الكبيرة والظواهر الكونية العظيمة.

عيسى يحرر الأفراد :

أما معجزة عيسى عليه السلام فإننا نقرأ في الانجيل أن الولاة ـــ حينما يزور عيسى عليه السلام بعض المدن والقرى ـــ لا يشتكون من معجزاته كإحياء الموتى وإبراء المرضى بل يشتكون دائماً من شيء واحد موجود في تقاريرهم، هو أن عيسى يحشد حوله دائماً أقواماً وأقواماً، وكلما خطب في الناس زاد عددهم، وتمردوا فكرياً، وصاروا متمردين على الحكم القائم، فمعجزته الحقيقية لم تكن منحصرة في الطب، بل كانت تحرير الأفراد، وكلنا يعلم أن البشرية لم تعرف قط العدد العديد والجموع الكثيرة من الأسارى والعبيد كما عرفتها أيام عيسى عليه السلام، كانت روما مسيطرة إذ ذاك على العالم كله، وكلما دخلت قرية أفسدتها وجعلت أعزة أهلها أذلة واسترقت الجميع، فجاء عيسى عليه السلام بالمساواة بين القوي والضعيف، جاء عيسى بنفي الاستعباد، الانسان حر، فحرر الرجال، وحرر الرقاب، وصار ينادي بالتحرر والحرية، الشيء الذي جمع عليه الآلاف والآلاف من البشر.

ويمكننا أن نقول في موسى وعيسى أن موسى لم يكن له وطن، وأن عيسى كان لاجئاً سياسياً في جميع الأقطار التي حل بها، مسألة الوطن مهمة جداً، الشيء الذي سيظهر ميزة أخرى تتعلق بالاسلام.

المعجزة الخالدة :

أما الديانة الاسلامية فإعجاز القرآن هو معجزتها الخالدة، هو المعجزة التي تجعل من المستحيل أن يترجم القرآن بنصه وفصه ومعانيه وبلاغته إلى لغات أخرى، إلا أن هناك معجزة أخرى تتمثل في الاعجاز الذي نجده في القرآن، فلو أخذنا (الأميين) بالتفسير المتعارف عليه لما كان في إمكاننا أن نثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل للناس كافة، فلا ننس أنه كان إذ ذاك الفرس، والبزنطيون، وروما، وفيتاغورس، وأريسطو، والشعراء، والفقهاء، والمهندسون، والأطباء، فكان الشرق ما عدا الجزيرة العربية ـــ كله يقرأ ويكتب فإذا قلنا ان النبي صلى الله عليه وسلم أرسل للأميين الذين لا يعرفون الكتابة والقراءة ضيقنا نطاق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

فما هو التأويل إذن ؟

التأويل هو قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

فالأمي ينقسم إلى قسمين :

الأمي من ناحية العقل والكتابة والقراءة، والأمي من ناحية عدم تطبيق تلك القراءة والكتابة في سيرته وفي معاملاته وفي مبادلاته وفي بيعه وشرائه، وفي زواجه وطلاقه، فإذا نحن أطلقنا لفظة الأمي فيمكن أن تكون بمعنى الجاهل الذي لا يقرأ ولا يكتب، ويمكن أن يكون الأمي أيضا ذلك الرجل الذي يعرف القراءة والكتابة ولكنه لا يطبقها حسب الشريعة والأخلاق، فعلى هذا التأويل يمكن تفسير قول الله تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا) بأن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم هي في الحقيقة رسالة للناس كافة.

قصر الأمية على جزيرة العرب أو قسم منها شيء معروف، والدليل على أن طرفا من جزيرة العرب لم يكن أمياً هو اليمن، فقد ذكر الله سبأ في القرآن وضرب بها المثل، وان مدنية اليمن وحضارة اليمن وعلماء اليمن لم يكن ليضاهيهم أحد في زمانهم، فالنقطة الأولى هي تمايز بعض الرسالات السماوية على بعضها من حيث الزمن، وميزة رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم جاءت لتعليم البشر وتربيته، فظهر لنا فضل رسالة سيدنا محمد عليه السلام من حيث الزمن.

هؤلاء الرسل...

من هو موسى ؟

ومن هو عيسى ؟

ومن هو محمد ؟

كيف كانت حياتهم ؟ وكيف كانت مشاعرهم ؟ ماذا عرفوا من الدنيا ؟ وماذا شهدوا منها ؟ وماذ جربوا ؟ وما لم يكتسبوه من التجارب ؟

أما ما نعرف عن موسى فهو قليل، فالتوراة نفسها نرى فيها غموضا بين وقت وحين ، بين الوقت الذي أخذه فرعون ورباه في بيته، وبين وقت النبوة والرسالة.

ولكن يمكننا أن نتتبعه في وقت نبوءته، فنراه لا يعرف شيئاً عن حالة المدينة عن حالة الأسرة، ولا عن الحالة التي يعرف فيها ضعف الرجل، والتي يعرف فيها كيف يحلل المشكلة الخلقية أو العاطفية التي تعتري كل واحد من البشر، وإنما نجده يقول عند نهاية حياته ما قاله الشاعر فنسي موين وهو يدعو باسم موسى : (اللهم إنك خلقتني قوياً ووحيداً، فتوفني إليك هادئاً)، ذلك لأن الرسالة التي أعطاه الله إياها كانت رسالة زجر، كانت رسالة قساوة، كانت رسالة نذير لا رسالة بشير، لأنه كان في عراك دائم مع قومه، كان يدعو عليهم بالسوء، كان يقضي حياته كلها في تقويم اعوجاجهم.

ويمكننا أن نقول : إن رسالة موسى عليه السلام كانت رسالة سلبية، لأنها كانت تشتمل على النواهي، ولم يظفر موسى يوماً من الأيام بسرور كالذي ظفر به النبي صلى الله عليه وسلم في حياته، ولم يرض عن رعيته ولا عن القوم الذين بعث فيهم. فلنستمع إلى موسى واله موسى يتكلمان، في هذه النبذة التي وقفت شخصياً على ترجمتها من التوراة.



قال الله على لسان موسى :

(إلى أي حين سيظل هذا الشعب يهزأ بي ويسخر مني ؟ وإلى أي وقت سيبقى غير مؤمن بي رغم جميع النعم التي اسبغتها عليه ؟ إنني سأسلط عليه الطاعون، وسأجعل منك أمة أقوى وأعظم منهم).

هكذا عاش موسى عليه السلام في عراك مستمر مع شعبه، وفي مناجاة مستمرة مع ربه، هذا ما أعتقد.

عيسى روح الله وكلمته :

أما سيدنا عيسى عليه السلام فمن هو ؟ سيدنا عيسى روح الله وكلمته، سيدنا عيسى لا نعرف عن صباه شيئاً، ولا يمكننا أن نتتبعه إلى حياته أو إلى تاريخه إلا بعد ما نراه يلتقي مع جان باتيست، ثم يشعر من نفسه إنه مؤهل إلى رسالة، فيخلو بالجبل الأسابيع والأسابيع، فيأتي الشيطان فيوسوس له، ويحاول أن يدحرجه وأن يجعله في موطن الزلق فيأبى سيدنا عيسى، ومن ثم يخرج عليه السلام ليدعو إلى رسالته.

الصورة المخالفة :

إننا إذا أمعنا النظر في رسالة عيسى عليه السلام لا نجد انه غير منسكا من مناسك موسى، بل زاد عليها الشيء القليل، ولكن لم يغير من الديانة اليهودية، لأنه كان أولا يهودياً، فلماذا جاء إذن ؟ إنه لم يجيء بمعتقدات جديدة. فالله موجود، وملائكته موجودون، ولكن رأى الله سبحانه وتعالى من الضروري أن يغير أمام الناس شبح ذلك الاله المنتقم، شبح ذلك الاله الذي لا يعمل إلا والهلاك في يده. أراد الله سبحانه وتعالى أن يعطي للناس صورة مخالفة لما يظنونه في الله، فجاء عيسى بأنه رب الرحمة ورب المغفرة ورب التوبة، ويمكنني أن أقول هذا، لأن الانجيل ليس ما كتبه أو قرأه عيسى فرواه عنه الناس مسترسلا متواصلا كما هو الشأن في القرآن — لو كان ذلك ما كان في إمكاني أن أقول شيئاً في هذا الباب — ولكن بما أن عيسى كان يتكلم بالعبرانية وبعده ترجم الانجيل إلى اللاتينية والعربية والانجليزية والفرنسية يمكنني إذن أن أقول بأن صفة ذلك الاله ربما غالى فيها سيدنا عيسى حتى قال : (إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) وحتى قال وهذا أعتقد إنه أخطر : (انظرو إلى الطير في السماء، فهي لا تبذر ولا تجهد ولا تجمع الحب في البيادر والحقول، وإنما يطعمها ربكم الأعلى، فهل لستم أجل منها قدرا وأرفع منها شأنا ؟).

عاش النبي ﷺ حياة شعبه :

أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد أراده الله أن يعيش حياة شعبه وحياة أمته، نعم عذب ﷺ وهزىء به كما هزىء بالرسل من قبله، ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يدع قط على شعبه، وحينما جاءه جبريل وهو في الطائف قال له : (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)، بل أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر لنا النبي صلى الله عليه وسلم في الحالات التي يمكننا أن نعيشها كلنا فرادى وجماعات، فهو الذي أخرج من مكة واستعظم الأمر واستكبره، وحينما قال له ورقة ابن نوفل قبل ذلك سيخرجك قومك، أجابه متعجباً : أو مخرجي هم ؟ واستعظم الأمر واستكبره، وبكى صلى الله عليه وسلم ومازالت لواعج الحنين تجيش في صدره منذ فراق مكة وهو في المدينة إلى أن اعتمر عمرة القضاء وحج حجة الوداع، ومكث بمكة وتعرف عليها وطاف بالبيت وزار جميع المعاهد والأماكن التي كان يهواها ويحبها والتي تربى فيها.



الداء والدواء :

إذاً عرف عليه الصلاة والسلام مفارقة البلد والاغتراب، عرف الحزن من فقد أحد أبنائه وقال : (العين تدمع، والقلب يخشع، ولا نقول إلا ما يرضي الرب وأنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون).

فقد والده، الشيء الذي لم يقع للآخرين، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يتوج هذا كله، فجاءت قضية الأفك، فعرف صلى الله عليه وسلم ما للغيرة وما للشك في زوجته وفي حليلته من مصائب وآلام ولواعج وتكاليف على الفكر والجسد، إلى أن أتى الله سبحانه وتعالى بآيات البراءة التي طمأنته على عرضه وعلى عائشة رضي الله عنها الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهم جميعاً.

هكذا نرى أن الرجل أي النبي صلى الله عليه وسلم من حيث هو عاش عيشتنا، وتقلب في آلامنا وعرف جميع الأنواع منها. عرف منها الجوع، عرف منها الغربة، والنفي، عرف منها فقد الولد، عرف منها القذف في عرضه، عرف منها الشك، عرف منها الارتياب، عرف منها كل شيء وما ذلك إلا ليربيه الله سبحانه وتعالى تربية كاملة، لأن المخلوق مخلوق وما نحن إلا من لحم ودم، وما قلبنا إلا موطن للشك واليقين، والمحبة والكراهية، فبذلك مكنه الله من أن يعرف الداء فيدلنا على الدواء، وإلا لكانت ديانته ديانة نظرية، ولكان نبياً نظرياً، ولكانت فردية ليس من ورائها شيء، إذن كان صلى الله عليه وسلم موضوعيا من حيث الزمن، ومن حيث المعجزات، ومن حيث الرجال، فكانت معجزاته أكمل المعجزات وأتمها وأقول أصلحها.

وإن نحن مثلنا الديانات بالعملة، فالعملة الجارية، العملة القوية العملة التي يمكن أن يتعامل بها في كل مكان وزمان وهي الذهب، هي النبي صلى الله عليه وسلم، فرسالته من ذهب عملة قوية يتعامل بها عند جميع الأجناس، وفي جميع الأماكن، وفي جميع الأزمنة.

قرأت عليكم في الأول بعض آيات لموسى وعيسى، وسأرجع إلى البعض منها بعد الشروع في تفسير الحديث.

الكم... والكيف :

الحديث في مبناه يعجبني جداً، بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بلفظة «كم» ولم يذكر في هذا الحديث معنى الكيف، فهذا استبشار عظيم، «كم» كلكم أو الكثير منكم يمكن الله أن يبر قسمه، ولكن لم يقل صلى الله عليه وسلم يشترط أن يكون فيك كذا وكذا حتى يبر الله قسمك.

فوجود «الكم» هنا دون أن يكون مقروناً بالكيف هو الذي يفتح لنا جميعاً : لرجل الشارع، للقوي، وللضعيف، وللمذنب، وللطائع، هذا الباب الذي يمكنه أن يناجي منه نفسه في ليله ونهاره، في شغله وفي راحته، قائلا : لعلي أكون من أولائك الذين إذا أقسموا على الله أبرهم، ولكن مع أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر بعض الشروط لابد لنا نحن أن نذكر بعضها الذي هو من باب تحصيل الحاصل، فالكلام جاء من فم النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالاسلام، فمن الطبيعي ان هذا العبد في هذا المقام لا يكون إلا مسلما، أمرنا بالايمان، فمن الضروري أن نكون مؤمنين حتى ندخل في هذا القالب، أمرنا بالاحسان، وهو الضمير المهني، وسنأتي بتقريره بعد، فلابد لنا من الاحسان حتى لا نكون منافقين وندخل في إطار هذا الحديث، أمرنا أن نكون مسلمين، أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن نقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونحج البيت،



ونصوم رمضان، أمرنا أن نكون مؤمنين، أن نؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه، وبما جاء به الحديث الذي نزل على فم جبريل الذي رواه مسلم والبخاري وغيرهما من رواة الحديث.

ما هو الاحسان :

وأمرنا بالاحسان، فما هو الاحسان؟ هو قول النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله جبريل عليه السلام عن الاحسان : (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، معنى هذا أن الانسان في جميع أعماله، وفي جميع حركاته وسكناته، إذا هو تشخص وجود الروح الالهية والاعانة الالهية مطبقة عليه من فوقه ومن تحته، من أمامه ومن خلفه، وعن شماله ويمينه، أدى ما هو مناط به على أحسن الوجوه، والدليل على هذا هو أن من لا يكون كذلك يصير من زمرة المنافقين الذين جاء فيهم كتاب الله بالوعيد الشديد، والذين وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان) وبعكس ذلك المؤمن، إنه هو الذي إذا حدث صدق، وإذا وعد وفى، وإذا أؤتمن أدى الأمانة.

إنها ليست شروطاً كثيرة : الشهادة، أربعة أركان : الايمان بالله والرسل والملائكة واليوم الآخر والقدر خيره وشره وحلوه ومره، وأن يكون فينا الاحسان حتى لا نكون من المنافقين، وحتى نستحضر الله دائماً في جميع ما نأتي وما نذر، وحتى نكون متحلين بصفة الضمير المهني.

شمول الرسالة المحمدية :

وقاعدة أخرى تركتها هي الأخرى نظراً لجسامتها : حديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : المهاجر من هجر السيآت، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، وهذه الفقرة هي التي تهمني : المسلم من سلم الناس من لسانه ويده.

أولا ــ نستبشر، فالقرآن كما أنه جاء للناس كافة جاء الحديث وسنة النبي صلى الله عليه وسلم للناس كافة، كان في إمكانه عليه السلام أن يقول المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ولكنه قال : المسلم من سلم الناس أي جميعهم من لسانه ويده.

الله.. الله.. يا أهل القلم :

وأنا أقول : (ويده) تدخل فيها الكتابة، فالمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، وقلمه، حيث ان القلم يخط فكيذب فيتقول فيتعرض إلى آفاق اجتماعية أو مصائب سياسية أو إلى فتن أو إلى قذف المحصنات أو إلى المس بالمقدسات، فالمسلم من سلم الناس من لسانه ويده التي يدخل فيها القلم الذي يكتب، القلم، فالله الله يا أهل القلم، الله.. الله.. يا أهل الصحف، اتقوا الله، اتقوا الله، حتى تكونوا مسلمين، وإن كنا نعينكم في بعض الأحيان على هذه التقوى ببعض من الرقابة، ولكن هذا لا يكفي.

قواعد تكميلية :

إذن هذه القواعد التي لابد منها. وهناك قواعد تكميلية، لأن الله سبحانه وتعالى لم يغفل في كتابه عن شيء، ولأنه إذا أردنا أن نستخرج من كل آية ومن كل حديث ما يجب علينا أن نقوم به حتى نكون مبشرين بالجنة، وحتى نظفر برضا الله وحتى نظفر بجوار النبي صلى الله عليه وسلم وحتى نظفر بالمغفرة، وحتى

. يتوب الله علينا — لوجدنا الشيء الكثير.

هذه بعض الآراء الموضوعية، وهذه المسائل التي جئتكم بها كلها موضوعية، وتدل على أن رسالة النبي ﷺ وافقت زمانها ومكانها، وجاءت للناس كافة الذين يقولون بالسحر والذين لا يقولون به، الذين يقولون بالطب والذين لا يقولون به، إن النبي ﷺ كانت له مثل الاحساسات التي لأمته، فعرف الداء فاهتدى الى الدواء، كل هذه المسائل عرفناها بكيفية مجملة، لأن مثل هذه الجوانب تقتضي بحثاً دقيقاً ومستطيلا.

لنرجع الى الكتب السماوية بما أننا ملزمون بالايمان بها، على الأقل نعرف ما فيها، جاء في التوراة — وهنا سترون عنصراً موضوعياً للفرق بين القرءان وغيره :

ثم خاطب الله موسى وهارون بهذه العبارات : (الى أي وقت سيظل هذا الجمع الخبيث يتهامس بي ويتقول علي ؟ انني سمعت الهمسات التي يتقول بنو اسرائيل ويقذفونني بها، فقل لهم : انني سأجعل منهم بحق روحي التي هي كلمة الله شيئاً مطابقاً لصدى صراخكم في آذاني، فجثتكم جميعاً ستهوى في تلك الصحراء، أنتم الذين جرى احصاؤكم بتعداد من بلغ منكم العشرين فما فوق، وتقولتم على الأقاويل، فإنكم قطعا لن تدخلوا البلد الذي اقسمت باقراركم فيه، ان جثتكم ستسقط في الصحراء، وسيبقى ابناؤكم فيها رعاة طيلة أربعين سنة كاملة ليكفروا عن خطاياكم ولا أزيد).

الفرق أولا : جاء في القرآن حينما أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر جلاله للمؤمنين ويبث فيهم شيئاً ما من الرعب والخوف قال لهم : «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين» الى آخر الآية.

(لنبلونكم) من باب التجربة وليس من باب العقاب، وزاد (من) التي هي للتبعيض حتى يأمل المؤمن والمسلم بأنه إذا ابتلى بالخوف فهو لا يبتلي بالجوع، واذا ابتلاه الله بالجوع فلا يبتليه بنقص في الأموال، هذا هو الفرق الأول.

أما الفرق الثاني فهو مهم جداً من باب المسؤولية المدنية، فالله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز :(ولا تزر وازرة وزر أخرى).

وفيما قرأت عليكم من التوراة : (وتصبحوا هشيماً) (ولقد قضيتم أربعين يوما تجوبون البلد) حتى قال : (ان جثتكم) (وسيصبح أبناؤكم فيها رعاة طيلة أربعين سنة كاملة ليكفروا عن خطاياكم) وهذه هي مسألة موضوعية، هذا قرآن وهذه توراة، والفرق بين ذلك وتلك ظاهر لمن أراد أن يكون مسلماً.

أما الانجيل فقد قال فيه عيسى عليه السلام في خطبته على الجبل :

(لا تشغلوا أنفسكم بهم السؤال : ما سنطعم ؟ وماذا سنسقي ؟ وبماذا سيتيسر لنا الكساء ؟ إن عباد الأصنام هم الذين عن كل هذا يتساءلون، إلا أن أباكم الأعلى يعلم بأنكم بحاجة إلى الطعام والشراب والكساء فالتجئوا إلى عدله، وسيهبكم الله كل ذلك تفضلا، ولا ترهقوا أنفسكم الاهتمام بالغد، لأن الغد سيفني بما فيه، ولكل يوم نصيبه من الفتنة، ولكل يوم ما يكفيه من العذاب). ونحن نروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه يقول : أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

ثم قال عيسى والفرق بين : (انظروا إلى الطير في السماء فهي لا تبذر ولا تحصد ولا تجمع الحب في

البيادر والحقول، وإنما يطعمها ربكم الأعلى، فهل لستم أجل منها قدراً وأرفع شأناً ؟ فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : (لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً). فمعنى التوكل في هذا الباب هو العمل، وأخذ الاحتياط وفرض جميع ما يمكن أن يقع، ومن بعد التوكل على الله، فما هي شريعة العمل، وها هي شريعة الخمول، ها هي شريعة الأمل، وها هي شريعة اليأس، ها هو كلام الرحمة، وها هو كلام الغلظة، هنا ولنبلونكم بكذا وكذا رحمة وغلظة. وهنا ستظلون تجوبون الأرض غلظة بلا رحمة.

ثم انظروا إلى الطير رحمة بلا فائدة، وما جمع الرحمة والفائدة إلا قوله تعالى (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا)، هذا هو الخير كل الخير.

ففيما يظهر أعتقد في ضميري أنه من الناحية التفسيرية والاجمالية انني أتيت على بعض الجوانب من هذا الحديث، وما واكبه من تفسير أتيت بآيات بينات وأحاديث نبوية واستدلالات من التوراة والانجيل مع أني لست صاحب هذه المهنة ولا متعاطياً لها، وقد اخترت هذا الحديث كما قلت لكم أولا لأنه يفتح باب الرحمة ويفتح باب الأمل، ولأنه يذكرنا بكتاب الله سبحانه وتعالى (ولئن شكرتم لأزيدنكم) فلنا في يمننا وفي يسرانا حبل من الله سبحانه وتعالى وحبل من رسوله صلى الله عليه وسلم لنفتح الآفاق أمامنا، ولنذلل العقبات، وهذا ما وقع لي في هذا الشهر الكريم وأردت أن أذكر هذا الحديث اليوم بمناسبة رمضان، حيث ان هذا الشعب أقسم على الله فأبره حينما قبل — منذ سنتين مضت — كل واحد منه، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم، أن يتنازل عن الزائد في ثمن السكر، وأن يتحمل جماعات وأفراداً بناء سد وادي زيز الذي تم ولله الحمد مشروعه، والذي سنشرع في العمل فيه في أوائل شهر شوال إن شاء الله (1)

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً :

فإليك أيها الشعب الكريم أرفع هذه البشرى، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو أصدق القائلين ما معناه : (إن لله شعوباً لو أقسمت على الله لابرها) فاهنأ بهذا الحديث وبهذه البشرى، لأنك أقسمت، وما معنى القسم ؟ أقسمت وعملت، أقسمت واهتديت فلم أقل شعبي العزيز لأنك تشبثت فرادى بجميع أطراف الديانة الاسلامية، فلم أقل، إنك كذلك صليت وإنك كذلك زكيت، أو إنك كذلك صمت أو إنك كذلك تجنبت المحرمات، أو إنك كذلك أطعت الطاعات وأتيت بها، ولكن أقول : إن هناك تكافؤاً، إن هناك توازناً، فإذا عصى واحد منا في ناحية أحسن الآخر في تلك الناحية، وهذه هي الشعوب والمؤمنون يشد بعضهم بعضاً، ما معنى يشد بعضهم بعضاً، يملأ المؤمن فراغ أخيه كلما وجد المؤمن فراغ أخيه من حسنة لم يأت بها فهو يعمر ذلك الفراغ حتى لا يبقى ذلك الجدار فيه ثغرات، وحتى يبقى جداراً مرصوصاً لا ثغرة فيه، فلنهنأ بهذا التكامل وهذا التكافؤ، ولم تكن هي البشرى الأولى، ولا البشرى الوحيدة في بلادنا، وفي تاريخنا القديم والحديث من إن الله سبحانه وتعالى أنصت إلى قسم الأبرار منا فأبرهم.

أخرجنا من ديارنا والرأس مرفوع :

وما استقلالنا ببعيد، وما حالة منفى أبينا ببعيدة، وما حالة الاحتلال والقهر والغلبة التي عشتها، أنت

(1) بدأ العمل في بناء سد زيز في تمام الساعة الثانية عشرة من نهار الجمعة 12 شوال 1387 — 12 يناير 1968 عندما ضغط جلالة الملك الحسن الثاني على زر فجر به شحنة من المتفجرات في فم غيور.

هنا والتي عشناها نحن هناك ببعيدة، فلقد أخرجنا من ديارنا ولكن أخرجنا منها والرأس مرفوع ولله الحمد، أخرجنا منها والقلب مليء بالايمان، أخرجنا منها واليقين يخامرنا ليل نهار بأننا سنرجع، وما اقتبسنا ذلك كله إلا من مرآة من مشعل كان ينعكس ضوءه عل شعبنا أي على أسرته الكبرى ثم على أسرته الصغرى، فركبنا الطائرة مؤمنين، ونزلنا الأرض الأجنبية مؤمنين، ورجعنا إلى المغرب متواضعين حامدين الله شاكرين حتى يزيدنا من نعمته ومن فضله، وهكذا قطعت شعبي العزيز مراحل وأشواطاً، ولعلي بك تقول : وكيف نقطع المحنة التي نجتازها كلنا شعباً مغربياً وشعوباً عربية وإسلامية ؟ أقول فليسلم كل مسلم من يد المسلم ولسانه.

فليراقب الله كل مسؤول في عمله :

هذا هو الشرط الأول، ثم أقول : فليراقب الله كل مسؤول في عمله، ولا يخط سياسة بكيفية جهارية ثم يهيء سياسة أخرى في السر، فيكون الظاهر مخالفاً للباطن.

كيف التخلص ؟ التخلص أننا نكون كأصحاب رسول الله ﷺ حينما أمره الله بالرجوع إلى المدينة بعدما آمنوا بأنهم سيدخلون مكة، وقد كان هذا الموضوع هو الذي كنت أريد أن أطرقه في الحقيقة، ولكن نظراً لتلابس المسائل السياسية ربما قد تخرج من فم عالم أو مفسر ولا يمكن أن يتمشى معها إلى النهاية لأن السياسة ليست من شأنه، أما أنا فمن شأني متى بدأت أطرق الموضوع السياسي استنفده، ومؤتمر القمة[1] على الأبواب فكان من المحرج جداً أن أطرق هذا الموضوع، لذا طلبت من فضيلة الشيخ أن ينوب عنا فيه جازاه الله خيراً، فإذا نحن تحلينا بهذا كله وتحلينا بما وجب من الفضائل أقسمنا على الله فأبرنا.

حديث الغار :

وهذا الحديث لطيف جداً حيث اننا نذكر العمل الاقتصادي ووادي زيز والتحرر الاقتصادي والتنمية الاقتصادية حديث لطيف جداً رغم ما فيه من خشوع ورغم ما فيه من جبروت ورحمة لله، نستقصي منه هذا الطرف الأخير.

كلكم يعلم ما وقع لأصحاب الغار، كانوا سائرين فإذا هم التجأوا إلى غار فإذا صخرة تنزل من الجبل فتحبسهم فيه فيطلبون من الله النجاة فلا تتحرك الصخرة، فيأخذ كل واحد يذكر ويقدم بين يديه ما يعتبره شفاعة وما يعتبر أن من شأنه أن يخفف عنهم ما هم فيه من الكرب.

وذكر الرجل الأول قضية البرور بالوالدين، المسألة واضحة البرور بالوالدين وصى به الله وجعل مكانة الوالدين بعد مكانة الله، وجعل لهما مقاماً رفيعاً، ولكن المسألة كيفما كانت هي مسألة سلالة، الولد يحب أباه وأمه، والأم والأب يحبان ولدهما، نعم البرور شيء والمحبة شيء، ولكن المنبع السلالي طبيعي.

وقال الثاني يا رب إنك تعلم أنه كانت عندي مناسبة لارتكاب عمل محرم مع ابنة عمي ولكن وقفت نفسي حتى لا آتي بتلك الفاحشة فإذا كنت تعلم أنني فعلت هذا لوجهك ففرج عن هذه الضائقة، فحقيقة هذا الرجل أنه تمكن من الفرصة ولم يرد استغلالها، ولكن المسألة مسألة أخلاق وعفة، فلذا فرج الله عنه.

---

(1) كان من المقرر أن ينعقد مؤتمر قمة عربي بالرباط يوم 17 يناير 1968 ولكنه تأجل

أما الثالث فسأقرأ قصته كما وردت بها نص الحديث، وبعد ذلك أعيده باللغة الدارجة ليمكن للجميع أن يستوعبه :

وقال الثالث يا الله، إنني استأجرت أجيراً بفرق أرز فلما قضى عمله قال اعطني حقي، فعرضته عليه فرغب عنه، فلم أزل ازرعه حتى جمعت منه بقرا وراعيها، فجاءني فقال : اتق الله، فقلت اذهب إلى ذلك البقر وراعيها فخذه، فقال اتق الله ولا تستهزىء بي، فقلت إنني لا أستهزىء بك فأخذه، فإن كنت تعلم يا رب اني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما بقي، ففرج الله وفتح عليهم الباب.

معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يشغل المسلمون اليد العاملة ويريد الاشتراكية الاسلامية التي تغني الفقير ولا تفقر الغني.

فلو احتفظ ذلك الرجل بذلك القدر من الأرز لما عصى ربه، كان يؤدي له أجره اليومي، ولكن لي اليقين أنه لو فعل ذلك وحده لما فرج الله عنه ذلك إن في هذا الحديث حكمتين : الحكمة الأولى : عدم الاستغلال بالمال الذي لا يروج، وترويج المال، واستخدام اليد العاملة، وإعطاء الأجور فحينا بذر وحصد وحده، لم يبذر ويحصد وحده، وحينا بذر وحصد المرة الثانية لم يبذر ولم يحصد وحده، وبذلك شجع اليد العاملة، وأخيراً كان الرجل فقيراً فأصبح غنياً، تلك هي الاشتراكية التي أقول لكم دائماً إنها اشتراكية الاسلام واشتراكية المغرب، اشتراكيتنا ترمي إلى إغناء الفقير لا إلى إفقار الغني، بالطبع الطريقة الأولى أصعب وأمر من الطريقة الثانية، فالطريقة الأولى يلزمها جهاد وكد وجهد عشرات السنين، والأجيال من المواطنين، أما الثانية فلا تحتاج إلا إلى علامة حتى يصبح الغني فقيراً وحتى يصبح الكل فقيراً.

دعــوات :

اللهم إن كنت تعلم أننا حاولنا إبتغاء فضلك ومحبة في كتابك وتعلقاً بسنتك، وقياماً بالواجب وإن كنا متطفلين على هذا كله، فإن كنت تعلم يا رب أننا فعلناه بحق وان هذا العمل ناتج عن نية صالحة فاغفر لنا اللهم سوء التفسير، واغفر لنا اللهم سوء التفكير، واغفر لنا اللهم ما لحنا في كلامك أو في كلام رسولك، وما قلنا معوجاً وما لم نقله مصيبين، اللهم إن كنت تعلم أن شعبك يصلي ويصوم ويزكي ويحج ويشهد أن لا إله إلا أنت وأن محمداً عبدك ورسولك اللهم فادم عليه نعمة التآخي، اللهم ادم علينا نعمة التآخي، اللهم كف أيدي المسلمين عن إخوانهم، اللهم كف ألسنتهم وأقلامهم عن المسلمين، اللهم ابذر في قلوبنا الرأفة والرحمة ولا تبذر في قلوبنا الشدة والغلظة، اللهم إنك تقول : (ولئن شكرتم لأزيدنكم) وإنني أشكرك اللهم، إن كل يوم بعد يوم وآياتك تتوالى، ونعمك تنبسط على هذه البلاد وعلى هذه الأرض بكيفية تجعلنا عاجزين عن الشكر، فمنذ ثلاث سنوات مضت كنا يا رب قلقين فزعين من حالة بعض الشبان، من حالة بعض الناس الذين وصل بهم الجهل لدينهم انهم ربما كانوا يتبجحون بأكل رمضان، اللهم إننا نشكرك على كوننا سمعنا أن الجل منهم يصوم رمضان، بل إنهم في وقت معين في الليل يخرجون صفاً صفاً للذهاب إلى المطعم الجامعي ليتناولوا سحورهم وحتى يصبحوا صائمين تائبين، اللهم زدنا وزدهم، اللهم قوهم، اللهم رسخ إيمانهم، اللهم ثبت أقدامهم، اللهم اجعلهم يؤمنون بدينك وبرسولك قلباً وعقلا، اللهم اجعلهم يتشبثون بهذا الدين موضوعياً وعاطفياً، لأن العاطفة كما تعلم يارب تخون أحياناً والعقل لا يخون أبداً، فثبت عاطفتهم بتعلقهم، وثبت أقدامهم بأن تجعل لهم هذا الدين سهلا سلسلا كما أنزلته على رسولك صلى الله عليه وسلم وكما جاء به رسولك عليه الصلاة والسلام.

اللهم إننا بهذا الضريح، وهذا الضريح هو ضريح عزيز علينا لأسباب شتى، فدفين هذا الضريح هو سيدي محمد بن عبد الله سيفك وظلك، كان سيفك في الجهاد، وظلك في الحديث وسنة نبيك، اللهم إنك تعلم أن دفين هذا الضريح هو مولانا الحسن الأول الذي كان عرشه على ظهر فرسه، والذي كان لا ينام مخافة ظلم أو جور يقع على فرد أو على جماعة أو على بلاده، ودفين هذا الضريح هو سيدنا محمد الخامس نور الله ضريحه، وأمطر عليه شآبيب رحمته، اللهم انفعنا ببركتهم، اللهم اجعل حياتهم وسلوكهم نبراساً لنا في حياتنا وسلوكنا، وارحم اللهم والدنا وأجزه عنا خير الجزاء واجعل الجنة مأواه، اللهم إنك تعلم أنه كان لا يغضب إلا إذا انتهكت حرماته فكن له ولا تكن عليه يوم القيامة، ولا تغضب عليه وارض عنه يا الله يا أرحم الراحمين، اللهم إنه كان يحب كتابك فأحبه على قدر محبته لك، اللهم إن ذكرك كان أحلى شيء في فمه يقدمه على ذكر أولاده وعلى ذكر أجداده وآبائه، اللهم اجعله من الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، اللهم إنك تعلم أنه كان ينصف الضعيف حتى يكون إماما عادلا، فأظله اللهم تحت ظلك كإمام عادل يوم لا ظل إلا ظلك، اللهم إنك تعلم أنه كان يضحي بكل ما في وسعه ليعيش الشعب، اللهم اجعل هذا الشعب كما أراد، وفوق ما كان يريد، اللهم اجمع شمل العرب وعزهم بالمسلمين، فإذا كانت النكبة الحربية قد وقعت على العرب فالنكبة الدينية وقعت على المسلمين فلنطمئن إذن فلم نبق منذ اليوم 70 مليون من البشر، بل أصبحنا نصف مليار من المدافعين عن دين الله وملة رسوله، ومسجده الأقصى، وعن أرضه المطهرة.

اللهم اعنا، وثبت أقدامنا، وامنحنا التواضع الذي بواسطته سأخدم هذا البيت، هذه الدار، اللهم إنك قلت في ابليس (أبى واستكبر) اللهم إني أعوذ بك من الاستكبار، اللهم إن منصبي وسني وما أوتيت من القدرة كل هذا من شأنه أن يطغى علي وأن يجعلني أطغى، اللهم فانزل في قلبي ذلك الميزان، ذلك الفرقان الذي به يمكنني أن أفرق بين الحق والباطل، اللهم انزع من قلبي الاستكبار، اللهم املأني بالتواضع، اللهم املأني بالتواضع، اللهم اجعل شعبنا وأمتنا دائماً ناعمة في ظلال الخير والنفع والاسلام والهدى والسنة النبوية، اللهم كثر من عدد علمائنا، اللهم عزز جانبهم، اللهم افتح أذهانهم واجعل كل واحد منهم حاملا لجميع العلوم، محيطاً بجميع الفنون، حتى يعلموا ويعملوا، وحتى لا يضيق أفقهم، وحتى لا يحسبوا أنهم غرباء في وطن غريب، فلم يكونوا غرباء، ولن يكونوا غرباء.

علينا أن نقترب منهم وعليهم أن يوسعوا أفكارهم، وأن يقتربوا منا، ولنا اليقين بأن خطوات كهاته سيطوي الله مسافتها لأنها خطوات ترمي إلى تعزيز كتاب الله وتعزيز سنة نبيه.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

ألقي بالرباط

السبت 14 رمضان 1387 — 16 دجنبر 1967